الاضطرابات العقلية

في علم النفس الحديث

للاستاذ موكسلي

نقلها الى العربية : حسن السلمان

الهيستريا وانواعها

ربما كان الفرق الاساسي بين علم النفس الحديث وعلم النفس الذي نما في القرن التاسع عشر وفيما قبله من القرون ان العلماء النفسيين المعاصرين أكثروا من الاهتمام بناحية الدوافع الفكرية او الناحية الوجدانية في الحياة العقلية ، وعنوا بدراسة الاضطرابات العقلية عناية كبيرة ، مما أدى الى اتساع أفق معرفتنا بهذه الناحية من الطبيعة الانسانية اتساعاً شاملاً

ليست الاضطرابات العقلية الا نوعاً من الاختلال بين القوى الوجدانية للانسان ، أدى الى ظهور أعراض شذوذٍ في العقل واعتلال في الجسد . والشخص المبتلى بالاضطرابات يشعر احياناً بفقدان الاتزان بين قواه الوجدانية دون ان يعي ذلك احياناً . واننا في هذا البحث لا نجد متسعاً لوصف مختلف اشكال الاضطرابات العقلية وذكر اوجه الشبه أو نواحي الاختلاف بينها فحسبنا ذكر بعض انواع الضعف النفسي[١] ، على ان نخصَّ بالذكر منها تلك التي تجعل المريض يقاسي ألم الخوف الشديد أو يشكو كثرة الهواجس والوساوس مثل الرهبة من المجتمعات[٢] والانقباض من الامكنة الضيقة[٣] والاستسلام الى الشكّ في كل ما يسمع والتريّث من كل ما يحيط به ، وتسلط الحركة غير الارادية على الاعضاء كقرض الاظافر . هذا ومما يجب ألاّ يغرب عن ذهن القارىء ان الاضطرابات العقلية عامل فتك بالاكثرية من الناس وما أقل اولئك الذين لا تظهر عليهم اعراض تلك الاضطرابات !

ومن أهم ما عُرف من الاضطرابات العقلية شيوعاً بين الناس والتي حازت النصيب الاوفر من بحث الباحثين وعنايتهم الاضطرابات الهستيرية وأخص انواعها الشلل الوظيفي[٤] وشلل أعصاب الاحساس[٥] او ما يسمى بالخدر ، الذي يسبب العجز عن استعمال عضو من الاعضاء

---

(١) Neuroses (٢) Agoraphobia (٣) Claustrophobia (٤) Functional Paralyses (٥) Anaesthesias

او فقدان قابلية الاحساس في بعض أجزاء الجسم . وتشتمل هذه الطائفة من الاضطرابات على جميع انواع النسيان [١] ولاسيما فقدان الذاكرة فينسى المرء جميع محتويات حياته الماضية مالكاً سبيلاً جديداً في الحياة لا علاقة له بما كان يتبعهُ من سبل في حياته السابقة . ويذهب بعض الباحثين الى ان تعدد الشخصيات في الانسان ليس الاَّ شكلاً من اشكال الهيستيريا

وفي مقدمة من حاول تفسير الاعراض الهيستيرية تفسيراً دقيقاً الاستاذ الفرنسي الكبير بيير جانيه [٢] الذي لاحظ اولاً ان الشلل الهيستيري لاعصاب الاحساس لاينشأ عن حدوث عطب في الجهاز العصبي ولا يؤدي الى حدوث عطل في العضو الاشل كما هو الامر في الشلل العضوي الناجم عن اصابة الاعصاب بمرض من الامراض

نظرية الانحلال للعلامة جانيه

وبعد دراسة كثير من صنوف الشلل الهيستيري توصل العلامة جانيه الى وضع نظريته الشهيرة عن « انحلال الشعور » [٣] التي تنص على ان مجرى الحوادث الشعورية في الانسان السوي وحدة مترابطة ، بينما تنشق فتؤلف عدة تيارات مستقلة في المريض المبتلى بالهيستيريا . فاذا ما مني عضو بشلل هيستيري مثلاً تحولت جميع الاحساسات الظاهرة على العضو الى تيارات شعورية متباينة الاتجاه دون ان يشعر المريض بذلك ، ومع هذا تظل تلك الاحساسات تؤثر في الناحية الحركية من الجهاز العصبي فتجعل العضو يتجنب الاذى عند ما يعرض لهُ

وبفضل هذه النظرية كشف الستار عن اسباب « الكتابة الآلية » عند المرضى المهستريين . فقد اوضح ذلك الدكتور بيرنارد هارت في كتابه « سيكولوجيا الجنون » [٤] عندما قال « لنفرض اننا شغلنا أحد المصابين بالهيستيريا بحديث متواصل ، وفي أثناء انهماكه بالحديث وانصراف انتباهه عن كل شيء سوانا نحن الذين نحادثه ، يضع شخص آخر قلماً بين أصابع يده اليمنى ثم يهمس ثالث بعض الأسئلة في أذنه ، فيكتب المريض الأجوبة عن تلك الأسئلة وهو مستغرق في الحديث معنا في موضوع يختلف كل الاختلاف عن مادة الأسئلة . وقد وجد ان المريض في مثل تلك الأحوال لا يشعر أبداً بما تسطره يده كما أنهُ يجهل في تلك اللحظة الأمور التي دونتها يده جهلاً تامًّا وعلى الغالب تكون تلك الأمور ذات علاقة بحوادث جرت فيما مضى من حياة المريض ، ولعيدة عن ذاكرته في أثناء الحديث ... »

وحسب ما يقرره جانيه ان هذه ليست سوى حالة من حالات انحلال الشعور ولسبب من الاسباب انشطرت الظواهر العقلية للمريض الى مجريين مختلفين أحدهما اتجه نحو التحدث

(١) Amnesia (٢) Pierre Janet (٣) Dissociation of consciousness
(٤) Psychology of Insanity, by Dr. Bernard Hart

مع من كان حوله من الاشخاص والآخر نحو الكتابة الآلية ، دون ان يدرك أحد السرين الآخر ودون ان يكون ثمة ارتباط بينهما

وتلقي نظرية الانحلال ضوءاً على طبيعة فقدان الذاكرة . فعندما يصاب المرء بفقدان الذاكرة تستقل بعض دوافعه النفسانية بعملها عن مجموع شخصية الانسان فتسيطر على جميع تصرفاته وأفكاره بينما تختفي شخصيته الرئيسية وتظل كامنة. وبعد ان يستعيد المريض ذاكرته تختفي تلك الدوافع والافكار المرتبطة بها وتكمن في اللاشعور بحيث لا يتذكر المريض من أمرها شيئاً. ومما يجب ان يلاحظ في هذا الصدد ان شخصية الانسان عندما يكون في حالة سوية، وشخصيته عندما يكون في حالة فقدان الذاكرة، ظاهرتان منفصلتان تمام الانفصال ، متجهة كل واحدة منهما شطر جهة تختلف عن الجهة الاخرى . وبعبارة أخرى ان عقلية ذلك الانسان تحللت الى مجريين متباينين في الاتجاه

ومن أشهر الامثلة على انحلال الشعور الحالات المتباينة التي كانت تظهر بها الآنسة سالي بوشام وهي التي عني بوصفها الدكتور مورتن پرنس في كتابه « انحلال الشخصية » [1] . كانت الآنسة بوشام تظهر في ثلاث شخصيات مميزة إحداها عن الاخرى تمام التمييز ، وقد رمز اليها المؤلف بما يأتي : ب١ ، ب٣ ، ب٤ . فكانت ب٣ تدرك ما تفكر به ب١ ولكنها في جهل تام بما تفكر به ب٤ ، بينما كانت ب١ لا تدرك إلا ما كانت تقوم به نفسها من الاعمال . كذلك كانت ب١ تمثل شخصاً حساساً مفكراً ذا ضمير حي ، بينما كانت ب٣ تمثل شخصاً شريراً كثير الحركة ولكنه دمث الاخلاق . أما ب٤ فقد كانت تمثل شخصاً كثير الكبرياء أنانى الطبع ميالاً الى السيطرة والحكم . ومن أغرب ما كان يلاحظ على الآنسة بوشام ، انها كانت تجيد اللغة الفرنسية عندما تتلبس بشخصية ب١ ولا تعرف منها شيئاً عندما تتغلب عليها شخصية ب٣ وتتكلمها بصعوبة كلية عندما تظهر بشخصية ب٤ . ومما لوحظ على هذه المريضة أيضاً ان التبدل في شخصياتها يجري بسرعة غريبة. فمدة سيطرة كل من تلك الشخصيات المتباينة على جسم المريضة وتحكمها بتصرفاتها لا يزيد على ساعة أو ساعتين ثم يبدو التبدل عليها

أسباب انحلال الشعور

وبعد ما عرفنا أن الانحلال مسبب للاضطرابات الهيستيرية ، كفقد الذاكرة وتعدد الشخصية ، حق لنا ان نسأل عن أسباب انحلال الشعور وعن عوامل حدوثه . يُستمَدُّ الجواب عن هذا السؤال من ثلاثة فروض سبق ذكرها في بحث « حقيقة التحليل النفسي » وهي « التضارب الفكري » و « الكبت » وهما من وضع الدكتور فرويد . والفرض الثالث « البناء العقلي » وهو من وضع الاستاذ ماكدوجل

(1) Dissociation of Personality, by Morton Prince

وبحسب ما يذهب اليه واضعو تلك الفروض إن أهواء الانسان وأفكاره ورغباته اوغيرها من مزاياه العقلية ليست الا معاني يقصدها الشعور للتعبير عن بناء عقلي او عن نظام خاص مخفي في اللاشعور . وقد بدأ هذا البناء في عقل الطفل مفرغاً في شكل مجموعة من الميول الفطرية المستقلة ثم إئتلفت معها عواطف الطفل وانضم اليها ما اكتسب من معارف ، فتكونت فيه بعد ما اجتاز سن الطفولة وأدرك سن البلوغ ، عقليته الموحدة العناصر . وتختلف درجة اتحاد عناصر البناء العقلي باختلاف المؤثرات في حياة ذلك الفتى اليافع . فاذا ما كان ذلك الاتحاد غير كامل بجميع نواحيه ، لا يكون لذلك الشخص بناء عقلي مترابط تمام الترابط ، بل يكون له سلسلة من الابنية العقلية المستقلة بعضها عن بعض ، تظهر في الشعور في شكل طائفة من الحوادث العقلية المستقلة . وما من شك في أننا عند ما نقول في أحاديثنا العامة عن شخص انهُ صاحب «عقلية طيبة» فاننا نقصد بذلك وصف بنائه العقلي الذي وان اختلفت نواحيه وتعددت إئتلفت أجزاؤه فتوحدت تمام التوحيد. والحق ان لصاحب مثل هذه العقلية عقلاً أحكم تدبيره وحسن تهذيبه أي ان له بفضل ما اكتسب من تجارب خلال ما مضى من حياته مجموعة غنية من المعارف التي يجيد التصرف بها فلا يظهرها إلا في الظروف المناسبة . فكثيرون هم الذين جمعوا الواسع من المعارف ولكنهم أساءوا التصرف فيها فلم يستخدموها عندما مست الحاجة اليها . وهذا ولاريب نقص كبير في العقلية يعزى الى وجود ضعف في وحدة بناءه العقلي . ومما يؤسف لهُ ان الغالب من الناس يعاني هذا النقص الفاضح

وخير ما نضربه من الامثلة على تصوير فقدان الوحدة في البناء العقلي ، تمسك كثيرين ممن تعلم وتثقف ، بالخرافات والاوهام وتطيرهم من بعض الحوادث وتفاؤلهم ببعضها الآخر. فليس بعسير ان نجد بين أهل العلم الذين يؤمنون ببعض الحوادث من يتشاءم بالمرور تحت سلم أسند الى جدار بأحد الشوارع . إن تصرفات الاشخاص تعبر عن بعض تجاربهم في ما مضى من حياتهم . فاذا ما شاهدنا شخصاً كهذا لا نخطىء اذا ما قلنا عنهُ ان تجاربه الماضية في الحياة عجزت عن تفهم المعنى الحقيقي للسلم ونعني بذلك ان ناحية المعرفة من بنائه العقلي عجزت عن العمل كوحدة مؤتلفة كاملة . ففي اللحظة التي شاهد فيها ذلك الرجل السلم لم يشتغل من بنائه العقلي الا جزء صغير جداً بينما ظل أغلبه معطلاً عن العمل . ويعزى هذا العطل الى أحد سببين : فقدان الروابط التي تؤلف بين اجزاء البناء العقلي أو ضعف في تلك الروابط مؤد الى عجزها عن العمل خلال تلك اللحظة . ولكن ما اسباب هذه الحالة ؟ ان نحو ناحية المعرفة من البناء العقلي يحدث من جراء تعدُّد رغباتنا المعقدة التي تولدها عواطفنا . وفي الغالب من الناس من تفصل عواطفهم بعضها عن بعض فتتولد لهم رغبات تخص مهنتهم واخرى تتحكم بحياتهم المنزلية وثالثة تتسلط على ساعات فراغهم الخ

التقسيم العقلي

وينجم عن استقلال العواطف وتحكم كل منها بناحية من نواحي حياتنا تعدُّد عقائدنا وتجمع بعضها في شكل مجموعات مستقلة لاتؤثر الواحدة منها في الاخرى، فتستقر كل من هذه المجموعات بناء عقلي خاص بها . وللسبب ذاته نرانا في ايام الآحاد مثلاً عند ما نكون تحت تأثير عواطفنا الدينية نؤمن بان العالم خلق في ستة ايام ولكننا في غير الآحاد من الايام وخاصة عند ما تكون رغباتنا العلمية مستحوذة علينا نرانا نستخف بتلك الفكرة مقرين بان ما ذهبت اليه الداروينية هو الرأي السديد . كذلك عندما نكون في مخازننا ومكاتبنا التجارية نبيح لانفسنا المزاحمة الحرة غير متورعين عن ايذاء مزاحمينا ، ولكننا عند ما نكون في اجتماع عقد لمساعدة احدى المؤسسات الخيرية يطغى علينا الاعتقاد بضرورة التعاون بين ابناء الجنس البشري فلا نبخل بالمال

وزيادة في التوضيح نفرض ان البناء العقلي للانسان ينحل احياناً فيتجزأ اجزاء مستقلة بعضها عن بعض وبذلك نستطيع تفسير حقيقة « انحلال الشعور » . ففي بعض الاحيان يكون التجزؤ واسعاً شاملاً فبدلاً من ان تكون لنا شخصيات متباينة بعض التباين كتلك التي نظهر بها عند ما نكون في البيت او في محلات اشغالنا أو في مجتمعاتنا تكون لنا شخصيات مختلفة كل الاختلاف كما هو الحال في شخصيات الآنسة بوشام

وينجم الانحلال عن التضارب الفكري لانهُ يوازي التقسيم العقلي ويماثله في الاتجاه ولان القوى الوجدانية في العقل تتنازع بعضها مع بعض فيؤدي ذلك الى الانقسام في الشخصية . ويحسن ستيفنسون تصوير ذلك في رواية الدكتور جاكل والمستر هيد . اما الكبت فليس الاَّ شكلاً من اشكال الانحلال الجزئي للشخصية

وخلاصة القول ان جوهر نظرية فرويد ، ان جردناها مما احتوتهُ من تعابير مغلقة يلخص في أن نمو البناء العقلي يتم في مرحلتين اثنتين — مرحلة الطفولة ومرحلة ما بعد البلوغ . فالبناء العقلي لمرحلة الطفولة يظل كامناً وراء البناء العقلي الخاص بمرحلة ما بعد البلوغ مؤثراً فيهِ بطرق مختلفة . ويأبى كثير من علماء النفس تأييد فرويد فيما جاء بهِ عن البناء الوجداني الفطري للعقل وتأثيره في تكوين الخلق الانساني . مع أنهم يعترفون بما لابحاثه من منزلة وجلة تأثيرها في تطور علم النفس الحديث . وقد سبق لنا فأشرنا الى مذهبي الدوافع والهيئة في فصل « المذاهب المتباينة في علم النفس الحديث » ، فلابد لنا الآن من شرح نظريات رسولين من رسل فرويد وقد انشقا عليهِ فأسس كل منهما مدرسة فكرية خاصة بهِ : وهما يونج وادلر

[البحث تتمة]